الضمائر المنعكسة في اللغة العربية

الدكتور محمود أحمد نحلة
كلية الآداب ـ جامعة الأسكندرية

لا يزال الدرس النحوي العربي القديم في حاجة إلى قراءة معاصرة تفيد من اتجاهات الدرس الحديث، ومناهجه، وطرائقه في رصد الظواهر اللغوية، ومعالجتها على نحو مضبوط، ويمكن الكشف بها عن ظواهر لم يعرض لها النحاة القدماء ومن صدر عن منهجهم من المحدثين، أو عرضوا لها ولكن لم يوفوها حقها من البحث الكاشف لها والمحيط بها. وليس من شك في أن أجيالا من الباحثين ـ وبخاصة من اتصل منهم بعلم اللغة الحديث دراسة وفهما ـ حاولوا، ويحاولون الآن الإفادة من جهود علماء اللغة المحدثين في أوربا وأمريكا في تجديد نظرتهم لتراثنا النحوي كله، والكشف عن كنوزه المخبوءة، وإثرائه، والإضافة إليه وإبراز عناصر القوة فيه، وإصلاح ما قد يكون فيه من جوانب النقص والقصور.

والنحاة العرب لم يعرفوا مصطلح «الضمائر المنعكسة» Reflexive Pronouns وإن عرفوا بعض ما يدخل فيه، ويندرج تحته، وعرفه نحاة بعض اللغات الأخرى، واستخدموا لما يدل عليه مصطلحا بديلا هو «الأفعال المنعكسة»[1] Reflexive Verben وهم يرون أن الضمير يكون منعكسا إذا كان مفعولا للفعل، متحدا coreferential مع الفاعل أو عائدا إليه،[2] والأفعال المنعكسة عندئذ هي الأفعال التي يكون معها الفاعل والمفعول به متطابقين أو عائدين إلى شخص واحد.[3]

وقد عرف نحاة العربية هذه الظاهرة من خلال درسهم لما أسموه «أفعال القلوب» وهي عند بعضهم سبعة أفعال: ظن، وحسب، وخال، وزعم، وعلم (إذا لم تكن بمعنى عرض)، ورأى (إذا لم ترد

رؤية العين)، ووجد (إذا لم ترد وجدان الضالة).[4] وأضاف إليها بعضهم «عدم»، و«فقد»، و«هَبْ» (بمعنى احسب)[5] وذكروا أن من خصائصها «أنك تجمع فيها بين ضميري الفاعل والمفعول فتقول: علمتُني منطلقا ووجدتَكَ فعلتَ كذا، ورآه عظيما، وقد أجرت العرب عدمت وفقدت مجراها، فقالوا عدمتُني وفقدتُني».[6] ولما كان هذا من خصائص «أفعال القلوب» فقد نصوا على أن ذلك لا يجوز في غيرها، بل يتوصل إلى التعبير عن هذا المعنى في غير أفعال القلوب بطريقة أخرى سنعرض لها.

ونود قبل الخوض في وصف هذه الظاهرة تركيبيا ودلاليا أن نعرض لما جاء عنها في كتب النحو العربي، لنقف على ما وصلوا إليه فيها، ونعرف أي مدى بلغوه في الكشف عنها والإحاطة بها:

جاء في كتاب سيبويه: «هذا باب لا تجوز فيه علامة المضمر المخاطب، ولا علامة المضمر المتكلم، ولا علامة المضمر المحدث عنه الغائب، وذلك أنه لايجوز لك أن تقول للمخاطب: اضربْكَ، ولا اقتُلْكَ، ولا ضربْتَكَ، لما كان المخاطب فاعلا وجعلت مفعوله نفسه قبح ذلك، لأنهم استغنوا بقولهم اقتُل نفْسَك وأهلكتَ نفسَك، عن الكاف ها هنا وعن إياك.

وكذلك المتكلم، لا يجوز له أن يقول أهلكتُنِي ولا أُهْلِكُني لأنه جعل نفسه مفعوله فقبح، وذلك لأنهم استغنوا بقولهم أنفع نفسي عن «ني»، وعن «إيّاي».

وكذلك الغائب لا يجوز لك أن تقول ضربه إذا كان فاعلا وكان مفعوله نفسه، لأنهم استغنوا عن الهاء وعن إيا بقولهم ظلم نفسه وأهلك نفسه، ولكنه قد يجوز ما قبح ها هنا في حسبت وظننت وخلت، وأرى وزعمت، ورأيت إذا لم تعن رؤية العين، ووجدت إذا لم ترد وجدان الضالة، وجميع حروف الشك، وذلك قولك حسبتُنِي وأراني ووجدتُنِي فعلت كذا وكذا، ورأيتُنِي لا يستقيم لي هذا. وكذلك ما أشبه هذه الأفعال، تكون حال علامات المضمرين المنصوبين فيها إذا جعلت فاعليهم أنفسهم كحالها إذا كان الفاعل غير المنصوب.

ومما يثبت علامة المضمرين المنصوبين ها هنا أنه لايحسن إدخال النفس ها هنا. لو قلت يظن نفسه فاعلة وأظن نفسي فاعلة على حد يظنه وأظنني ليجزىء هذا من ذا لم يجزىء كما أجزأ أهلكتَ نفسَكَ عن أهلكتَكَ، فاستغنى به عنه... وإذا أردت برأيت رؤية العين لم

يجز رأيتُنِي، لأنها حينئذ بمنزلة ضربت». (7)

وجاء فيه أيضا : «ولا يجوز أن تقول ضربتُنِي، ولا ضربتُ إياي، لا يجوز واحد منهما لأنهم استغنوا عن ذلك بضربتُ نفسي، وإياي ضربتُ». (8)

هذان النصان النفيسان من كتاب سيبويه تردد صداهما من بعد في كتاب النحاة الخالفين، وأضاف بعضهم إلى ما جاء فيهما تفصيلات من الأهمية بمكان، سنعرض لها إن شاء الله.

ويمكننا أن نلحظ في كلام سيبويه ما يأتي:

1 — فهم سيبويه ظاهرة «الانعكاس» كما فهمها نحاة الغرب، دون أن يضع لها مصطلحا خاصا كما فعلوا، بل جعلها جزءا من تعدية الفعل إلى المفعول، فالرجل يدرك ما حددوا به معنى «الانعكاس»، وهو أن يوقع الفاعل الفعل بنفسه، فيكون الفاعل مفعولا به، وعبارته صريحة في ذلك: «...لما كان المخاطب فاعلا، وجعلت نفسه مفعوله...»، «...لايجوز له أن يقول أهلكتُنِي ولا أُهلِكُنِي لأنه جعل نفسه مفعوله...».

2 — حدد سيبويه الضمائر التي تحمل هذا المعنى بضمائر النصب والجر المتصلة وهي ياء المتكلم وكاف المخاطب، وهاء الغائب، ثم «إيّا» مقدمة مضافا إليها ضمائر التكلم والخطاب والغيبة، واستبعد بذلك أن تحمل ضمائر الرفع هذا المعنى، ومثل هذا نجده عند نحاة الألمانية، إذ ينصون على أن الضمائر المنعكسة لاتستخدم إلا في حالتي النصب والجر، ولا يمكن أن تستخدم في حالة الرفع. (9)

3 — ذكر سيبويه أن هذه الضمائر ترد مباشرة مع بعض الأفعال، وقد ترد مسبوقة بكلمة «نفس» أو «إيّا». وواضح أن سيبويه يسوى بين قولك: ضربتُ نفسي، وإيّاي ضربتُ، ومع أن ظاهر كلامه يمنع ضربتُ إياي، فقد أورد في موضعين من كتابه شاهدا يدل على جوازه، هو قول ذي الإصبع العدواني:

كَأنَّا يَوْمَ قُرَّى إ نَّمَا نَقْتُلُ إيَّانَا (10)

أي : نقتل أنفسنا، وفي هذا الشاهد دليل على ما لم ينص سيبويه عليه، وهو أنها مؤخرة أيضا بمعنى أنفسنا وتقوم مقامها.

4 — ما ذكره سيبويه يدل على أن الأفعال مع الضمائر المنعكسة تتصرف تصرفها مع غيرها فترد ماضية، ومضارعة، وأفعال أمر، وقريب من ذلك موجود في غير العربية أيضا كاللغة الألمانية، فإن الأفعال المنعكسة فيها تستخدم من حيث الزمن Tempus ودلالة

الصيغة Mudus استخدام الأفعال غير المنعكسة.[11]

5 — عرض سيبويه لتوزيع[12] هذه الضمائر محددا استخدامها الصحيح والمواضع التي تخرج فيها على الصحة النحوية، ويمكننا أن نوضح ذلك على النحو الآتي:

(1) أ - (أنا) ضربتُني*

ب - (أنت) ضربتَكَ*

ج - (هو) ضربَه*

(2) أ - (أنا) ضربتُ نفسي (إياي)

ب - (أنت) ضربتَ نفسك (إياك)

ج - (هو) ضربَ نفسه (إياه)

(3) أ - (أنا) ظننتُ نفسي مجتهدا*

ب - (أنت) ظننتَ نفسَك مجتهدا*

ج - (هو) ظنَّ نفسَه مجتهدا*

(4) أ - (أنا) ظننتُني مجتهدا

ب - (أنت) ظننتَك مجتهدا

ج - (هو) ظنَّهُ مجتهدا

بمقارنة هذه المجموعات يتضح أن الضمائر المتصلة التي تتحد مع الفاعل أو تعود إليه نوعان: ضمائر مسبوقة بكلمة نفس، وضمائر غير مسبوقة بها، وحيث تجوز هذه لا تجوز تلك، وهي في الحالة الثانية مفعول مباشر للفعل، وفي الحالة الأولى انتقل حكم الضمير إلى كلمة نفس، فوقعت مفعولا به، وأضيف الضمير إليها.

والأفعال التي يرد معها ضمير المفعول عائدا على ضمير الفاعل غير مسبوق بكلمة «نفس» أفعال محدودة، تكون مجموعة «مغلقة» من الأفعال حددها النحاة بعشرة أفعال، أما الأفعال التي يرد ضمير المفعول معها عائدا على ضمير الفاعل مسبوقا بكلمة «نفس» فهي مجموعة «مفتوحة» تشمل سائر الأفعال.

وإذا جاز لنا أن نعتد الأمثلة التي وردت في رقم(1) بنية باطنة عميقة Deep Structure «تحولت» في الأمثلة التي وردت في رقم(2) إلى بنية سطحية ظاهرة Sur-face Structure جاز لنا أن نعتد الأمثلة التي وردت في رقم(3) بنية باطنة «تحولت» في الأمثلة التي وردت في رقم(4) إلى بنية سطحية ظاهرة وإذا جاز أن يكون الضمير المنعكس مسبوقا بـ«نفس» أو «إيا» في رقم(2)، فإنه لايجوز أن يكون كذلك في رقم(4). ويجوز لنا بعد ذلك أن نضع قاعدتين إجباريتين «تتولد» بهما الضمائر المنعكسة، وتشملان المادة اللغوية السابقة الواردة في كتاب سيبويه:

القاعدة الأولى :

إذا كان الضمير مفعولا أول الفعل من أفعال القلوب عائدا على الفاعل كان ضميرا منعكسا.

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدا على الفاعل في غير أفعال القلوب مسبوقا بكلمة نفس أو إيّا كان ضميرا منعكسا.

وعلى أساس من هاتين القاعدتين يمكن استبعاد أن تكون الضمائر في الأمثلة الآتية ضمائر منعكسة:

(5) أ ـ (أنا) ضربتُك.

ب ـ (أنا) ضربتُه.

(6) أ ـ (أنت) ضربتَني.

ب ـ (أنت) ضربتَه.

(7) أ ـ (هو) ضربني.

ب ـ ((هو) ضربك.

(8) أ ـ (أنا) ظننتُك...

ب ـ (أنا) ظننتُه...

(9) أ ـ (أنت) ظننتَني...

ب ـ (أنت) ظننتَه...

(10) أ ـ (هو) ظنَّني...

ب ـ (هو) ظنَّك...

كذلك لا يمكن أن «تتولد» بهما التراكيب السطحية الآتية:

(11) أ ـ (أنا) ضربتُ نفسَك*.

ب ـ (أنا) ضربتُ نفسَه*.

(12) أ ـ (أنت) ضربتَ نفسي*.

ب ـ (أنت) ضربتَ نفسه*.

(13) أ ـ (هو) ضرب نفسي*.

ب ـ (هو) ضرب نفسك*.

(14) أ ـ (أنا) ضربتُني*.

ب ـ (أنت) ضربتَك*.

ج ـ (هو) ضربَه*.

(15) أ ـ (أنا) ظننتُ نفسي*...

ب ـ (أنا) ظننتُ نفسَك*...

ج ـ (أنا) ظننتُ نفسَه*...

(16) أ ـ (أنت) ظننتَ نفسَك*...

ب ـ (أنت) ظننتَ نفسي*...

ج ـ (أنت) ظننتَ نفسَه*...

(17) أ ـ (هو) ظن نفسه*...

ب ـ (هو) ظن نفسي*...

ج ـ (هو) ظن نفسك*...

ولا يمكن بهما أيضا إنتاج جمل «نحوية» في البنية السطحية مثل:

(18) أ ـ نفسي ضربتني*.

ب ـ نفسُك ضربتك*.

ج ـ نفسُه ضربته*.

ولنشر الآن إلى ملحظ نراه ضروريا في المادة اللغوية السابقة، فقد حكمنا على (14ج): هو ضربه بأنها غير صحيحة نحويا، بناء على القاعدة الثانية على أساس أن الضارب هو المضروب كما يمكن إيضاح ذلك بالطريقة الآتية:

هو ضربه

أ أ

لكن هذه الجملة تحتمل أن يكون الضارب فيها غير المضروب، فلا يعود

فيها ضمير المفعول على ضمير الفاعل، كما يمكن إيضاح ذلك بالطريقة الآتية:

هو ضربه

أ ب

ولذلك لا بد من العودة إلى البنية الباطنة التي تحتوي على الخبر المراد، فإذا كان الضارب فيها هو المضروب انطبقت عليها القاعدة الثانية فولدت منها الجملة الصحيحة نحويا وهي: هو ضرب نفسه، وإن كان الضارب فيها غير المضروب تولدت هذه البنية: هو ضربه الصحيحة نحويا، وبهذا نعلم أن من التراكيب السطحية الظاهرة مالا يمكن الحكم عليه بالصحة النحوية أو انتفائها عنه إلا بعد العودة إلى البنية الباطنة العميقة. وهذا الأمر غير متحقق في المادة اللغوية السابقة إلا في ضمير الغائب.

ولعل من اللازم الآن أن نختبر انطباق القاعدتين اللتين وضعناهما بناء على ما ورد من أمثلة في كتاب سيبويه على مادة لغوية مستعملة في أوثق نص عربي وأجدره بالاعتماد عليه، وهو القرآن الكريم. والأمر في القاعدة الأولى هين ميسور، إذ الضمائر المنعكسة «تولد» بها مع مجموعة «مغلقة» من الأفعال محددة كما ذكرنا بعشرة أفعال، فإذا ذهبنا نلتمس لها دليلا من القرآن الكريم وجدنا أنه لم يرد من أفعال القلوب التي يعود مفعولها الأول على فاعلها غير الفعل المضارع «يرى» مضارعا مسندا إلى ضمير المتكلم، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿وَدَخَلَ مَعَهُ السِّجْنَ فَتَيَانِ قَالَ أَحَدُهُمَا إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْراً وَقَالَ الآخَرُ إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾

(يوسف 36).

وغير الفعل «رأى» ماضيا مسندا إلى ضمير الغائب كما في قوله تعالى:

﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى﴾

(العلق 6، 7)

والقاعدة منطبقة عليهما، فالضمير مفعول أول لفعل من أفعال القلوب عائد على الفاعل، فهو إذن ضمير منعكس.

فإذا تتبعنا استخدام القرآن الكريم لأفعال القلوب التي وردت فيه استخداما انعكاسيا وهي: ظن، وحسب، ورأى، وعلم، تبين لنا أن القرآن الكريم يدخل في عدد من المواضع «أنَّ» على الضمير المنعكس على الفاعل، وأكثر ما يكون ذلك مع الغائب منعا للبس الذي أشرنا إليه في المثال (14ج)، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم مَّانِعَتُهُمْ حُصُونُهُم مِّن اللهِ﴾

(الحشر 2)

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ﴾

(يونس 22)

﴿وَظَنُّوا أَنَّهُم قَدْ كُذِّبُوا﴾

(يوسف 110)

﴿فَظَنُّوا أَنَّهُم مُّوَاقِعُوهَا﴾

(الكهف 53)

﴿الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو رَبِّهِمْ...﴾

(البقرة 46)

﴿ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو الله...﴾

(البقرة 249)

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ مُّهْتَدُونَ﴾

(الأعراف 30)

﴿وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعاً﴾

(الكهف 104)

﴿وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَىَ شَيْءٍ﴾

(المجادلة 18)

﴿وَرَأَوْا أَنَّهُم قَدْ ضَلُّوا﴾

(الأعراف 149)

وظاهر أن الضمير إذا اتصل بالضمير دون أن تفصل بينهما «أنَّ» فقيل: فظنوهم، أو يحسبونهم، أو : رأوهم، أدى ذلك إلى اللبس في البنية السطحية الظاهرة فالضمير عندئذ يحتمل العودة على الفاعل فيكون ضميرا منعكسا، والعودة على غير الفاعل فيكون غير منعكس.

والقرآن الكريم يلجأ إلى ذلك أيضا إذا كان الفاعل مفصولا عن ضمير النصب المنعكِس عليه، إذ لا يمكن عندئذ اتصال الضمير بالفاعل، فوسطت «أنَّ» بينهما، كما في قوله تعالى:

﴿وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُم قَادِرُون عَلَيْها﴾

(يونس 24)

﴿أَلاَ يَظُنُّ أولَئِكَ أَنَّهُم مَبْعُوثُون﴾

(المطففين.4).

﴿إِنِّي أَرَى فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُك﴾

(الصافات 102).

وقد فصلت «إنَّ» المكسورة الهمزة بين الفاعل الظاهر والضمير المنعكس عليه في موضع واحد في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ عَلِمَتِ الْجِنَّةُ إِنَّهُمْ لَمُحْضَرُونَ﴾

(الصافات 158).

وعلى أساس مما عرضناه من مادة لغوية ينبغي أن نعود إلى القاعدة الأولى التي وضعناها بناء على ما ورد في كلام سيبويه والنحاة من بعده، فنجري عليها التعديل الآتي:

القاعدة الأولى :

إذا كان مع أفعال القلوب ضمير عائد على الفاعل كان ضميرا منعكسا.

وننتقل الآن لننظر فيما تنطبق عليه القاعدة الثانية من القرآن الكريم، فقد ورد فيه قوله جل وعز:

﴿إلاَّ مَن سَفِهَ نَفْسَهُ﴾

(البقرة 130).

﴿فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُ﴾

(البقرة 231).

﴿ظَلَمْتُ نَفْسِي﴾

(النمل 44)

﴿ظَلَمْتُمْ أنْفُسَكُمْ﴾

(البقرة 54).

﴿إن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيّ﴾

(الأحزاب 50).

﴿فَتَنتُمْ أنفُسَكُمْ﴾

(الحديد 14)

﴿خَسِرُوا أنْفُسَهُمْ﴾

(الأعراف 9).

﴿وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي﴾

(يوسف 53).

﴿مَنْ يَشْرِي نَفْسَهُ﴾

(البقرة 207).

﴿يَظْلِمْ نَفْسَهُ﴾

(النساء 110).

﴿لاَ أَمْلِكُ إلاَّ نَفْسي﴾

(المائدة 25).

﴿وَتَنْسَوْنَ أنفُسَكُمْ﴾

(البقرة 44).

﴿تَقْتُلُونَ أنفُسَكُمْ﴾

(البقرة 85).

﴿وَلاَ تَقْتُلُوا أنْفُسَكُمْ﴾

(النساء 29).

﴿وَلاَ تُخْرِجُونَ أنفُسَكُم مِّنْ دِيَارِكُمْ﴾

(البقرة 84).

﴿كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أنْفُسَكُم﴾

(البقرة 187).

﴿فَلاَ تَظْلِمُوا فِيهِنَّ أنفُسَكُمْ﴾

(التوبة 36).

﴿وَلاَ تَلْمِزُوا أنفُسَكُمْ﴾

(الحجرات 11).

﴿فَلاَ تُزَكُّوا أنفُسَكُمْ﴾

(النجم 32).

﴿يُزَكُّونَ أنفُسَهُمْ﴾

(النساء 49).

﴿يَخْتَانُونَ أنْفُسَهُمْ﴾

(النساء 107).

﴿وَما يُضِلُّونَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ﴾

(النساء 113).

﴿وإن يُهْلِكُونَ إلاَّ أنْفُسَهُمْ﴾

(الأنعام 26).

﴿وَلاَ أنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ﴾

(الأعراف 192).

﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾

(الكهف 28).

﴿فَاقْتُلُوا أنفُسَكُمْ﴾

(البقرة 54).

﴿اقْتُلُوا أنفُسَكُمْ﴾

(النساء 66).

﴿أَخْرِجُوا أنفُسَكُمْ﴾

(الأنعام 93).

﴿وَلُومُوا أنفُسَكُمْ﴾

(إبراهيم 22).

وواضح أن القاعدة الثانية تنطبق انطباقا تاما على العبارات القرآنية السابقة مع تعديل طفيف فيها على النحو الآتي:

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدا على الفاعل في غير أفعال القلوب مسبوقا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) كان ضميرا منعكسا.

وواضح أيضا أن الضمير في النصوص السابقة لم يرد مسبوقا بـ(إيَّا)، لكنه ورد في شاهد شعري أورده سيبويه هو:

كَأنَّا يَوْمَ قُرَّى إ نَّمَا نَقْتُلُ إيَّانَا[13]

فوجب أن يضاف إلى القاعدة فتصبح:

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدا على الفاعل في غير أفعال القلوب مسبوقا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) أو بكلمة (إيَّا) كان ضميرا منعكسا.

على أنَّا قد وجدنا في القرآن الكريم شاهدا بني فيه الفعل للمجهول، فلم ينعكس الضمير على الفاعل، بل انعكس على نائب الفاعل، وذلك في قوله تعالى:

﴿لاَ تُكَلَّفُ إلاَّ نَفْسَكَ﴾

(النساء 84).

من ثم وجب أن تعدل القاعدة مرة أخرى لتصبح:

القاعدة الثانية :

إذا كان الضمير عائدا على الفاعل أو نائبه في غير أفعال القلوب مسبوقا بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس) أو بكلمة (إيا) كان ضميرا منعكسا.

ولما كانت كلمة (نفس) أو جمعها، وكلمة (إيّا) ترد كل منهما ملازمة للضمير المنعكس لا تنفك عنه، ولا ينفك عنها أو يذهب عن الضمير معنى الانعكاس، وتصبح الجملة التي يرد فيها «غير نحوية»، فإننا نبيح لأنفسنا أن نطلق على الضمير المسبوق بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس)، أو المسبوق بكلمة (إيّا) مصطلح «ضميمة منعكسة» ليتيسر لنا الوصف التركيبي والدلالي لها.

أولا ـ الوصف التركيبي :

أ ـ مع أفعال القلوب :

1 ـ الضمائر المنعكسة مع أفعال القلوب لا تكون إلا ضمائر تكلم أو خطاب أو غيبة في محل نصب وتنعكس على الفاعل ضميرا أو اسما ظاهرا، غير مفصولة عنه، أو مفصولة عنه بـ(أنَّ) أو (إنَّ). والنحاة يجعلون من خصائص هذه الأفعال أن ضمير الفاعل فيها يتعدى إلى ضمير المفعول، ولا يلتفتون إلى فاعلها الظاهر، ولا إلى توسط (أنَّ) أو (إنَّ) بين الفاعل والضمير المنعكس عليه، لأن شأنها في ذلك شأن سائر الأفعال غير المنعكسة المتعدية إلى مفعولين. يقول ابن السراج: «ويجوز في باب ظننت وحسبت أن يتعدى المضمر إلى المضمر».[14] ويقول الزمخشري: «ومنها (أي من خصائصها) أنك تجمع فيها بين ضميري الفاعل والمفعول فتقول: علمتُني منطلقا، ووجدتَك فعلتَ كذا، ورآه عظيما».[15] وقال ابن يعيش في شرحه لعبارة الزمخشري: «وأما أفعال القلوب التي هي ظننت وأخواتها فإنه يجوز ذلك فيها ويحسن، فيتعدى «ضمير» الفاعل فيها إلى «ضمير» المفعول الأول دون الثاني فتقول: ظننتُني غنيا، وحسبتَك غنيا، وذلك لأن تأثير هذه الأفعال إنما هو في المفعول الثاني، ألا ترى أنَّ الظن والعلم إنما يتعلقان بالثاني، لأن الشك وقع فيه، والأول كان معروفا عنده، فصار ذكره كاللغو فلذلك جاز أن يتعدى ضمير الأول إلى الثاني، لأن الأول كالمعدوم، والتعدي في الحقيقة إلى الثاني، وقوله: «رآه عظيما» في المثال، يريد: إذا كان المفعول الأول هو الفاعل المضمر في «رأى» فاعرفه».[16]

ويقول الرضي في شرح الكافية: هذه الأفعال المذكورة في متن الكافية، ولفظة «هَبْ» بمعنى احسب، و «رأى» الحلمية يجوز كون فاعلها ومفعولها ضميرين متصلين متحدي المعنى نحو: علمتُني قائما، وقال تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا﴾[17] وقال السيوطي: لا يجوز أن يكون الفاعل والمفعول ضميرين متصلين لشيء واحد في فعل من الأفعال إلا في ظننت وأخواتها، وفي فقدت وعدمت. قاله البهاء النحاس في تعليقه على المقرب».[18]

2 ـ جوز بعض النحاة ورود الفاعل مع هذه الأفعال اسما ظاهرا نحو: ظنه زيد قائما، فإذا كان الفاعل ضميرا مستترا يعود على المفعول الظاهر لم يجز نحو: زيدا ظن منطلقا[19] وقال الرضي: «والقياس جواز : ظن زيدٌ زيداً قائما، أي نفسه».[20]

والأصوليون من النحاة على أنه إن

وجب القياس لشيء حكما، وجاز أن يأتي السماع بضده فالرأي الأخذ بالقياس حتى يرد ما يبين ذلك.[21]

3 ــ يمكن أن يحل اسم آخر محل الضمير المنعكس، من ثم فالضمير المنعكس عنصر من العناصر المكملة للجملة، على أن هذا العنصر مطلوب من الفعل على وجه اللزوم، فلا يجوز حذفه. يقول ابن السراج: «...وإنما حقه أن يتعدى فعل المضمر إلى المضمر، وتكون أيضا قد جعلت المفعول الذي هو فضلة في الكلام لابد منه وإلا بطل الكلام.[22]

ولا يقتصر استعمال أفعال القلوب على الضمائر المنعكسة، بل كما تستعمل هذه الأفعال منعكسة تستعمل غير منعكسة فنقول مثلا: ظننت زيدا قائما، أو: ظننتُك قائما، أو: ظن زيدٌ عمرا قائما.

4 ـ لا يمكن أن ينعكس الضمير مع أفعال القلوب على «نائب الفاعل»، ولا أن تبنى هذه الأفعال للمجهول إذا اتصل بها ضمير منعكس، مع أنها أفعال متعدية إلى مفعولين، ومن ثم نعدها حالة خاصة من حالات التعدي، وتتفق هذه الأفعال من هذه الناحية مع الأفعال المنعكسة في اللغة الألمانية.[23]

5 ـ يطابق الضمير المنعكس مع هذه الأفعال الفاعل في النوع والعدد.

6 ـ يجوز أن يتقدم الضمير المنعكس مع هذه الأفعال على الفاعل، كما اتضح ذلك في المثال الذي أورده الرضي، وهو: ظنه زيدٌ قائما،[24] فقد تقدم الضمير المنعكس، وفصل الفاعل بين المفعولين.

ب ـ مع غير أفعال القلوب :

1 ــ الضمائر المنعكسة مع هذه الأفعال ضمائر تكلم وخطاب وغيبة، مسبوقة بكلمة (نفس) أو جمعها (أنفس)، أو بكلمة (إيّا). ويرى رَايْتْ أن الضمير قد يرد مسبوقا بكلمة نفس، أو عين، أو وجه، (وفي العربية المتأخرة: روح، ذات، حال) مثل قتل نفسه، عزّ به نفسك، اهلكتُ روحي، **أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّه.**[25] وقد رأينا أن نطلق على الضمير المنعكس المسبوق بكلمة نفس أو ما يشبهها مصطلح «ضميمة منعكسة».[26]

2 ـ ترد الضميمة المنعكسة في القرآن الكريم في موقع المفعول به لفعل ماض، أو مضارع، أو أمر كما ظهر في الشواهد القرآنية التي ذكرناها. وقد ترد مفعولا ثانيا لفعل متعد إلى مفعولين من غير أفعال القلوب، وفي هذه الحالة يفصل الفاعل بين المفعولين كما في قوله تعالى:

﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾

(آل عمران 28)

وترد مفعولا به للمصدر كما في قوله تعالى:

﴿تَخَافُونَهُمْ كَخِيفَتِكُمْ أنفُسَكُمْ﴾ (الروم 28).

وقوله عز وعلا :

﴿لَمَقْتُ اللَّهِ أكْبَرُ مِن مَّقْتِكُمْ أنفُسَكُمْ﴾ (غافر 10).

وترد مفعولا به لاسم الفاعل كما في قوله جل وعز:

﴿فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَفْسَكَ عَلَىَ آثَارِهِمْ﴾ (الكهف 6)

وترد مفعولا به لاسم الفعل كما في قوله جل وعز:

﴿عَلَيْكُمْ أنفُسَكُمْ﴾ (المائدة 105).

وترد الضميمة المنعكسة في موقع المجرور بحرف جر أصلي كما نجد ذلك في الشواهد القرآنية الآتية:

﴿إلاَّ مَا حَرَّمَ إسْرَائِيلُ عَلَىَ نَفْسِهِ﴾ (آل عمران 93).

﴿كَتَبَ عَلَىَ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ (الأنعام 12).

﴿فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ﴾ (يوسف 77).

﴿فَأَوْجَسَ فِي نَفْسِهِ خِيفَةً مُّوسَى﴾ (طه 67).

﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ (طه 41).

﴿أَوْ أكْنَنتُمْ فِي أنفُسِكُمْ﴾ (البقرة 235).

﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لأنفُسِكُمْ﴾ (التوبة 35)

﴿إنْ أحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لأنفُسِكُمْ﴾ (الإسراء 7).

﴿شَهِدْنَا عَلَىَ أنفُسِنَا﴾ (الأنعام 130).

﴿أَسَرُّوا فِي أنفُسِهِمْ﴾ (المائدة 52).

﴿كَذَبُوا عَلَىَ أنفُسِهِمْ﴾ (الأنعام 24).

﴿وَشَهِدُوا عَلَىَ أنفُسِهِمْ﴾ (الأنعام 130).

﴿فَرَجَعُوا إلَىَ أنفُسِهِمْ﴾ (الأنبياء 64).

﴿لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أنفُسِهِمْ﴾ (الفرقان 21).

﴿أَسْرَفُوا عَلَىَ أنفُسِهِمْ﴾ (الزمر 53).

﴿فَعَلْنَ فِي أنفُسِهِنَّ﴾ (البقرة 240).

﴿فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُ عَلَى نَفْسِهِ﴾ (النساء 111).

﴿وَلاَ يَرْغَبُوا بِأنفُسِهِمْ عَن نَّفْسِهِ﴾ (التوبة 120).

﴿فَمَن اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا﴾

(يونس 108)

﴿وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِه﴾

(النمل 40).

﴿وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ﴾

(العنكبوت 6).

﴿وَمَن تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ﴾

(فاطر 18).

﴿وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِ﴾

(محمد 38).

﴿فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِ﴾

(الفتح 10).

﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَن نَّفْسِهَا﴾

(النحل 111).

﴿لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي نَفْعاً وَلاَ ضَرّاً﴾

(الأعراف 188).

﴿أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسي﴾

(يوسف 54).

﴿فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَىٰ نَفْسي﴾

(سبأ 50).

﴿وَمَا تُقَدِّمُوا لأنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ اللهِ﴾

(البقرة 110).

﴿يُخْفُونَ فِي أَنفُسِهِمْ مَّا لاَ يُبْدُونَ لَك﴾

(آل عمران 154).

﴿ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أنفُسِهِمْ حَرَجاً﴾

(النساء 65).

﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إلاَّ بِأنفُسِهِمْ﴾

(الأنعام 123).

﴿أوَ لَمْ يَتَفَكَّرُوا فِي أنفُسِهِمْ﴾

(الروم 8).

﴿فَلأنفُسِهِمْ يَمْهَدُونَ﴾

(الروم 44).

﴿وَيَقُولُونَ فِي أنفُسِهِمْ لَوْلاَ يُعَذِّبُنَا اللَّه﴾

(المجادلة 8).

﴿يَتَرَبَّصْنَ بِأنفُسِهِنَّ﴾

(البقرة 234).

﴿وَقَدِّمُوا لأنفُسِكُمْ﴾

(البقرة 223).

﴿فَادْرَءُوا عَنْ أنفُسِكُمُ الْمَوتَ﴾

(آل عمران 168).

﴿بَلِ الإنْسَانُ عَلَىٰ نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ﴾

(القيامة 14).

﴿فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ عَمِيَ فَعَلَيْهَا﴾

(الأنعام 104).

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ﴾

(فصلت 46).

وترد الضميمة المنعكسة مع اسم الفاعل دون فاصل مجرورة بحرف جر أصلي كما في قوله تعالى:

﴿وَهُوَ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِ﴾

(الكهف 35).

﴿شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ﴾

(التوبة 17).

وترد مفصولة بـ(ولو)، كما في قوله جلَّ شأنه:

﴿شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ﴾

(النساء 135).

وظاهر أن الضميمة المنعكسة المجرورة بحرف جر أصلي غير محفوظة الرتبة، كما هو شأنها إذا كانت غير منعكسة، فهي ترد بعد الفاعل، وبعد المفعول، ومقدمة على المفعول، ومقدمة على الخبر، ومقدمة على الفعل والفاعل، ومحصورة بـ(إلاَّ) وخبرا لمبتدإ محذوف.

وترد الضميمة المنعكسة في موقع الجر بالإضافة إلى المصدر كما في قوله جل شأنه:

﴿وَمَنْ يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ﴾

(الحشر 9).

﴿مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي﴾

(يونس 15).

﴿وَلَا خَلْقَ أَنفُسِهِمْ﴾

(الكهف 51).

﴿لَا يَسْتَطِيعُونَ نَصْرَ أَنفُسِهِمْ﴾

(الأنبياء 43).

وترد في موقع المجرور بحرف جر زائد في محل رفع فاعلا، كما في قوله تعالى:

﴿كَفَىٰ بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾

(الإسراء 14).

3 ـــ تعود الضميمة المنعكسة على ضمير بارز متصل، أو على ضمير مستتر، أو على اسم ظاهر كما ظهر في الشواهد السابقة.

4 ـ تطابق الضميمة المنعكسة ما تعود إليه في النوع والعدد.

5 ـ من الممكن أن يحل محل الضميمة المنعكسة عنصر لغوي آخر، وليس في اللغة العربية أفعال لا تستخدم إلا منعكسة، على نحو ما نجد ذلك مستخدما في اللغة الألمانية.[27]

6 ـ يجوز أن تبنى الأفعال للمجهول مع الضميمة المنعكسة، على ألا تكون الضميمة المنعكسة نائب فاعل، بل يظل لها موقع النصب، كما في قوله تعالى:

﴿لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ﴾ (النساء 84).

7 ـــ تستخدم الأَفْعال المنعكسة من حيث دلالة الصيغة والزمن استخدام الأفعال غير المنعكسة.